العهد العثماني: 1518م – 1830م

أولا/ أسباب التواجد العثماني:

احتل الاسبان المرسى الكبير سنة 1505م، ومدينة وهران سنة 1509م وبجاية سنة 1510م وجزر البنيون المواجهة لميناء الجزائر العاصمة، وأمام هذا الوضع لم يجد الجزائريون بدا سوى الإستنجاد بالأخوين الأتراك عروج وخير الدين بربروس و"يرجع أصل الأخوين المجاهدين الى الأتراك المسلمين وكان والدهما يعقوب بن يونس منبقايا المسلمين الأتراك الذين استقروا في جزيرة مدللي إحدى جزر الأرخبيل وأمهما سيدة مسلمة أندلسية كان لها الأثر على أولادها في تحويل نشاطهما شطر بلاد الأندلس التي كانت تئن في ذلك الوقت من بطش الإسبان والبرتغاليين"[1] .

فهب هذان الأخوان إلى نصرة إخوانهم في الدين والعقيدة في الجزائر الذين لم يستطيعوا أن يردوا الجيوش المسيحية. خاصة بعد ما استنجد بهما سكان مدينة بجاية في عام 917هـ (1512م)، "وطلبوا منهما مساعدتهم على طرد الجيش الاسباني من بجاية، كما استنجد بهما سكان مدينة تلمسان وطلبوا من خير الدين و عروج باسم الإسلام القضاء على السلطان أبي حمو الثالث الذي تحالف مع الإسبان وكانت النتيجة طرد الاسبان من تلمسان. لكن ذلك كلف عروج حياته حيث توفي في احدى المعارك ضد الجيش الاسباني سنة 1518م"[2] وبعد استشهاد عروج كان بعض الحكام المحليين الموالين للاسبان حجر عثرة في طريق خير الدين، فعهد هذا الأخير إلى استمالة السكان وعلمائهم إلى صفه وكسب ودهم " وإقناعهم بأهمية انضمام بلدهم إلى السلطة العثمانية التي تزود جيشه بالسلاح والمؤونة والدعم السياسي، لمواجهة الهجمات الإسبانية، وبهذا الأسلوب تمكن خير الدين من تقوية جيشه، وبسط نفوذه وضمن سيطرته على الدوام بعد أن أصبح ممثلا للسلطان التركي في أرض الجزائر"[3]

([1]): محمد الصلابي، الدولة العثمانية، ط2، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، مصر ،2004، ص206، 207

([2]): عبد الله شريط محمد مبارك الميلي، مختصر تاريخ الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 149.

([3]) عمار بوحوش التاريخ السياسي للجزائر، البصائر الجديدة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص61

وعلى هذا الأساس فإن التواجد العثماني في الجزائر كان بسبب مساعدة شعبها للوقوف ضد الاحتلال الإسباني والإيطالي "وبفضل تلك المساعدة شعر أبناء الجزائر بدرجة عالية من الأمان والاطمئنان في ظل الدولة العثمانية القوية"[1]

وبناء على ذلك يمكن القول أن العثمانيين جاؤو منقذين وليس محتلين.

ثانيا/ مراحل الحكم العثماني:

امتد الحكم العثماني للجزائر منذ عام 1518 إلى غاية الإحتلال الفرنسي 1830م، حيث مر بأربعة عهود:

1- عهد البايلربايات (1518م – 1587م).

امتازت هذه المرحلة بالقوة وتوطيد ركائز الحكم والقضاء على توسعات الاسبان والكثير من التمردات، وتم إلحاق الجزائر بالخلافة العثمانية وغدا خير الدين بربروس يلقب بالبايرباي أي باي البايات وأصبحت الجزائر إحدى ولايات الخلافة العثمانية مما أكسبها قوة في الداخل والخارج. وقد اهتم البايلربايات بتشييد المساجد وسخروا الأوقاف الطائلة لخدمة الأفراد كما بنو الحصون والمدارس والقصور والحمامات والمستشفيات وقلاع ضخمة لازالت آثارها شاهدة إلى الآن. كما امتازت البلاد بالغنى الاقتصادي بسبب الزراعة والثروة الحيوانية وما يأتيها من زكوات من الماشية والحبوب و الزيتون وأنواع المدخلات الأخرى. إضافة إلى خمس غنائم البحر التي كان يغصبها الرياس وأموال الخزينة التي كانت مفروضة على الدول الأروبية.

2– عهد الباشاوات: (1587م – 1659م)

نتج هذا التغيير بسبب الصراع الذي كان قائما بين الجيش الإنكشاري والرياس، إلى جانب تشكيك الإنكاشرية الدولة العثمانية من ناحية البايلربايات. مما جعل رجال الدولة العثمانية يرى أن جمع السلطة في الولايات الثلاث: الجزائر، تونس وطرابلس تحت حكم رجل واحد قد يشكل خطرا على الإمبراطورية لذلك جعلت كل عاصمة منوطة الى باشا واحد تدوم مدة حكمه ثلاث سنوات فقط.

---

[1] منير شفيق، الاسلام في معركة الحضارة، الشركة الساحلية للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، 1988، ص137

- ونتيجة مخاوف الدولة العثمانية أيضا من محاولة التمرد والاستفراد بالمغرب العربي تحت لواء بايلرباي واحد.

وقد نجم عن ذلك أن أصبح كل باشا يلهث خلال ثلاث سوات بنهب بيت مال المسلمين أو بفرض الضرائب على الرعية، مما أدى إلى تدهور الحالة الإجتماعية والاقتصادية داخل المغرب العربي وهذا ما أدى إلى سخط الشعوب عليها ومحاولة التمرد أيضا، سواء من قبل الكراغلة وهم الجند الذين لم تدفع رواتبهم أو في جبال القبائل أو في عدة مناطق أخرى. وقد كانت هذه الظروف سببا في إحلال نظام جديد و هو عهد الأغاوات وهم رؤساء الفرق العسكرية.

3- **عهد الآغاوات**: (1659-1671)

" كانت فترة الأغاوات قد ازداد فيها الوضع سوءا أكبر من ذي قبل فمن اهتزاز في نظام الحكم إلى الإغتيالات وكثرة التآمرات التي تحاك ضد الحكام إلى الخسائر التي تعرض لها الجزائر عن طريق أساطيل أوربا إلى سيطرة الفوضى العارمة وعدم الإستقرار الذي عم"[1].

هذا النظام الجديد هو نوع من الديمقراطية داخل الطبقات العسكرية، حدد بمدة سنتين لكل آغا. ولم يساعد هذا النظام على الاستقرار وقد تميز بالإستقلال عن العاصمة التركية. حيث أرغم حاكمها على القبول بذلك والرضا به، كما تميزت هذه المرحلة التي دامت 12 سنة، بكثرة المؤامرات والإغتيالات، راح ضحيتها الكثير من الآغاوات الذين كانوا يلهثون خلال فترة حكمهم وراء مصالحهم الشخصية، دونما النظر إلى شؤون الرعية والاهتمام بأموره، مما مهد لبروز عهد الدايات من بعده.

وقد تميزت هذه المرحلة بما يلي[2]:

- اضمحلال نفوذ السلطان العثماني، وغياب السيادة العثمانية في الجزائر.

- استفحال الصراعات المحلية، سواء ضباط الجيش البري، أو ضباط الجيش البحري، وتذمر أبناء الشعب من الفساد السياسي، وانتشار الفوضى في البلاد.

([1]): صالح فركوس، مرجع سابق، ص 126

([2]): عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية لغاية 1962، البصائر الجديدة، الجزائر، 2013، ص66

- نجح البولداش (الجيش البري) في قلب الحكم والإنفصال عن العثمانيين والحد من سلطة "الرياس" لكنهم فشلو في إنشاء نظام سياسي ديمقراطي ناجح"

4- **عهد الدايات** (1671م – 1830م) : تميزت هذه المرحلة أن أصبح الداي يعين إلى مدى الحياة من أجل تفادي سلبيات المرحلة السابقة، كما أنه لم تعد تبعية مطلقة لتركيا سوى الدعاء للخليفة العثماني أي صلاة الجمعة أو إمداده بالمساعدة في حالة مواجهة تركيا الخطر يداهمها من قبل المسحين كما حصل في معركة نافارين 827 م و من أهم النقاط التي التي ميزت هذه المرحلة:

"- في عهد الدايات تحول جنود البحرية من جنود مناضلين ومقاتلين ضد القوات المسيحية المناهضة للإسلام إلى رجال يبحثون عن الغنائم لأنفسهم وللحكام.

- اهتم حكام الجزائر في القرن السابع عشر والثامن عشر بجمع الثروة من العمليات الحربية، ولم يهتموا بتطور الدخل من الثروة الفلاحية، وتوفير الغذاء للسكان"[1].

كما تمكن الحكام في الجزائر على تطهير جميع الأراضي والمراسي من التواجد الإسباني نهائيا .

ثالثا/ الحياة الاجتماعية والسياسية في العهد العثماني:

" بالرغم من عدم وجود إحصائيات رسمية عن سكان القطر الجزائري في العهد العثماني، فإن بعض التقديرات تشير إلى أن سكان الجزائر في نهاية العهد العثماني كان يتراوح بين ثلاث ملايين وثلاثة ونصف مليون نسمة، وأن 5% من هؤلاء السكان كانوا يعيشون في المدن، و95% من سكان الجزائريين كانوا يعيشون في الريف" [2]

وقد كان تقسيم المجتمع الجزائري في العهد العثماني كما يلي:

1- **الطبقة الارستقراطية التركية**:

" وهي الفئة المسيطرة على الجزائر حتى نهاية الحكم العثماني بالجزائر سنة 1830. بالرغم من قلة عدد أفراد هذه الجالية التي لم يتجاوز عدد أفرادها سنة 1830م 20.000 نسمة فإنها كانت قوية وذات نفوذ واسع

([1]):المرجع السايق، ص 68

([2]) : ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979، ص 41

في البلاد، ويحرص أفرادها على ابقاء المناصب الحكومية بين أيديهم، وعزل السكان الأصليين للبلاد عنهم"[1]

وقد عزف الأتراك أو هذه الطبقة عن خدمة الأرض أو الاشتغال ببعض المهن لأنهم اكتفوا باشتغال مناصب حكومية وأخذ راتبهم من خزينة الدولة أو تأجير البساتين التابعة لهم، كما كانوا يفضلون تشغيل بني جلدتهم من الأتراك إذا احتاجوا ا إلى رجال فإنهم يأتون بهم من تركيا خصيصا لهذا الأمر.

ولهذا فقد تميزت العلاقة بين الأتراك والجزائريين بالجفاء والعداء والنفور.

2- **جماعة الكراغلة**:

وهم أبناء من أب تركي وأم جزائرية، كانوا كسابقيهم من الطبقة الأرستقراطية يترفعون عن خدمة الأرض أو القيام بأعمال يدوية وفي نفس الوقت لم يكونوا ليشاركو في الحكم أو الإنضمام للجيش، خشية من أن يتحالفوا مع السكان الأصليين ضد الحكم، وقد بلغ عددهم نهاية القرن الثامن عشر بمدينة الجزائر حوالي 6.000 نسمة تملك الثروات الطائلة من استثماراتهم في الزراعة خاصة.

3- **المهارجون الأندلسيون**:

وهم اللذين هاجروا من الأندلس بعد سقوطها في أيدي الصليبين، خاصة بعد عملية الطرد التي مارسها الإسبان ضد المسلمين سنة 1610م. وقد إمتهنوا التجارة واشتهروا بها ولذلك فقد عرفوا بتجارة الجملة وتمويل السفن، كما أنهم برعوا في صناعة البارود والتجارة والخياطة وصناعة الخزف، وقد ساعدهم على تمويل مشاريعهم وتجارتهم، الأموال التي جاءوا بها من الأندلس.إلى جانب ذلك فقد عرفوا بإنتاج الحرير بالقليعة وزراعة القطن بمستغانم.

"أما أبناء البلد الأصليين فقد كان معظمهم يشتغلون بالزراعة والتجارة. وتميز بنوميزاب بتواجدهم في الحمامات العمومية والمجازر والمطاحن. أما الزنوج فكانوا يشتغلون كغسالين وخبازين وخدم[2] .

4- **فئة اليهود**:" بالرغم من وجود عدة فئات أجنبية مسيحية فإن الجماعة النشيطة التي ارتفع شأنها في الجزائر هي جماعة اليهود، لأن اليهود كانوا يتعاملون مع الداي وقادة الجيش (الرياس) ويقومون بشراء وبيع

([1]) : عمار بوحوش، مرجع سابق، ص78

([2]) : المرجع السابق، ص 80

البضائع أو الغنائم التي يحصل عليها رجال الجيش. كما اشتهرت اليهود بعمليات السمسرة، والقيام بدور الوساطة في كل العمليات التجارية"[1].

وهذا ماجعل هوة كبيرة بين السكان الأصليين واليهود من حيث امتلاك الثروة، حيث أن اليهود الذين يعتبرون أجانب عن هذه الأرض أصبحوا أصحاب الثروات الكبيرة على حساب الدولة الجزائرية وسكانها بينما السكان الأصليين يعانون ويلات الفقر والعوز مما جعل الجزائريين يحقدون عليهم ويغتاضون منهم.

رابعا/ الحياة الثقافية:

"عرف العهد العثماني في الجزائر بالركود الثقافي شأنه في بقية البلاد العربية، فلم تكن هناك حركات تجديد فكرية ولا انتفاضات علمية ذاتية أو متأثرة بالبلاد الأوربية، ورغم أن العربية ظلت لغة التعليم ولغة الشعب فإن الدولة قد اتخذت التركية لغة رسمية"[2].

أما بخصوص التعليم، نجد أن كتب الرحالة تشهد بأن التعليم في العهد العثماني كان منتشرا وأن كل الجزائريين تقريبا كان يعرف القراءة والكتابة.

"وقد كان التعليم حرا من سيطرة الدولة ومن سيطرة الحكام العثمانيين، فكان سكان كل قرية ينظمون بطرقهم ووسائلهم الخاصة تعليم القرآن والحديث والعلوم العربية والإسلامية ... وكانت المدارس على مختلف مستوياتها تمول وتغذي بالأوقاف التي يحبسها أهل الصلاح والخير من الرجال والنساء"[3].

أما ما ارتبط بموضوع التعليم ومحتواه وبرامجه في كل مرحلة من مراحله، فقد "كان التعليم الإيتدائي مقتصرا على تحفيظ القرآن وقليل من الفقه، ويتم في المدارس (الكتاتيب) التي كان منها 86 مدرسة بقسنطينة، و80 بالعاصمة، و50 بتلمسان عشية الإحتلال، وفي الزوايا والمساجد. وشملت مراحله الثانوية والعليا: الفقه والتفسير والتوحيد وعلوم اللغة والفلك والحساب لتخريج المدرسين والأئمة والقضاة، وذلك في الجوامع والزوايا المشهورة بالعاصمة وقسنطينة وتلمسان ومازونة وبلاد القبائل وإقليم ميزاب على وجه الخصوص"[4].وقد كان المتخرج يأخذ إجازته شفويا.

([1]) : المرجع نفسه، ص 80

([2]) : أبو القاسم سعد الله، محاظرات في تاريخ الجزائر الحديث، عالم المعرفة، الجزائر، 2009، ص159

([3]) : المرجع نفسه، ص 160

([4]) : بشير بلاح، مرجع سابق، ص32

وأما عن الحياة الدينية، فقد سيطرت الطرق الصوفية "على فهم وممارسة الجزائريين للإسلام. وكان لها دوران، دور إيجابي تمثل في تحفيظ القرآن الكريم، وتعليم مبادئ الإسلام مشوبة بكثير من البدع والخرافات، ودور سلبي غالب، تمثل في ممارسة الدجل والدروشة، ونشر البدع والضلالات والخزعبلات (الأباطيل) واستغلال الجماهير"[1].

أما عن الحياة الفكرية والأدبية فإننا نجد بعض المبادرات المحتشمة التي لم ترتقي إلى نهضة ثقافية، فقد شهد القرن الثامن عشر "عملين من كتابة الرحلات أحدهما لمفتي الجزائر المالكي، أحمد بن عمار الذي سجل ملاحظاته أثناء رحلته الى مكة، وثانيتهما حسين الورتلاني الذي كتب أيضا رحلته إلى المشرق، وشهدت علوم الفقه وأصول الدين تقدما على يد عبد الرحمان باش تارزي القسنطيني والشيخ عبد العزيز الثميني الميزابي"[2].

ومن ناحية الأدب نجد الشيخ محمد بو راس الناصري الشاعر والذي خلد انتصار محمد الكبير باي وهران على الإسبان سنة 1791 م .

كما نلاحظ في هذه الفترة. انتشار الأدب الشعبي بسبب عدم تمكن الناس من اللغة العربية الفصحى، وقد كان كل من ابن مسايب التلمساني وسيدي ابن علي فارسان في هذا الميدان يعبران عن خلجات الشعب الجزائري سواء تعبيرا عن السراء أو الضراء.

([1]) : المرجع السابق، ص32

([2]) : أبا القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، مرجع سابق، ص166